

إلى أمي... بعد غياب 25 عاما!



21 مارس 2019 - 06:47

حسن عصفور

هي المرة الأولى منذ أن قررت الذهاب بعيدة عني، سأكتب لها وعنّها، أمي صغية، رغم كل ما لها بي من أثر إنساني وشخصي قد يفوق ما كان لغيري دون تمييز بما تقدمه الأم، أي أم، لكن هذه المرأة الأمية، التي وجدت نفسها فجأة في صباها أرملة وأسرة من 6 أفراداً أصغرهم عمره عام (هو أنا)، تقلص عددهم بعد سنة من رحيل عامود الخيمة، كما كانت تحب أن تسمى والدنا محمد بن جازية، بفقدان طفلة بعد ان دهستها سيارة، حادثين يهدان الجسد والروح في أقل من عام...

لكنها صغية، التي اختارت مستقبلاً لتحضن من لها (ثلاث بنات وولدين)، ذهبت لتعمل كي تصنع حياة بما تستطيع، وكان لها أن حققت ما قد يفوق ما تمنته لإسرتها رغم بعض من إخفاقات لبعض منها.

في فبراير عام 1994، كنت أحد المشاركين في الوفد الفلسطيني لمفاوضات طابا بعد توقيع اتفاق أوسلو، طابا التي لا تبعد كثيراً عن غزة، جاءني اتصال ان والدتي تعيش في وضع قد لا تستطيع أن تقاومه، وهي التي كسرت من الصعاب، وتحدثت بجبروت فريد ما واجهها في طريق حياتها، لخص الاتصال أن "أمك تتمنى أن تراك قبل غيابها الطويل".

كانت لحظات قاسية جداً، حملت كل أشكال التناقض الإنساني، ألا تستحق هذه المرأة الفولاذية منك "مغامرة ما"، الا تستحق وهي التي لها كل الفضل ولا غيرها فيما انت فيه، هي من منحك ثقة وحباً، عشقت فيها الحياة قبل الانسان، خاصة وان بعض الأصدقاء في الوفد الفلسطيني أخبروا رئيس الوفد الإسرائيلي المفاوض "أمنون شاحك" بما كان، فعرض ان يسهلوا ذهابي ضمن ما يعرف بدخول "حالات إنسانية".

عرض اصابني بهزة وجدانية لم اعرفها فيما كان قبا من حياتي، فرصة لأذهب لها أقبل قدميها التي عانت وهي تبحث لنا عما يمنحنا كرماً في الحياة، أحضنها كما كنت دوماً أنام بحضنها، تخيلتها وهي تستقبلني بفرح أخير لتقول لي يا بني استودعك... تخيلتها بتلك الفرحة التي اصابتنا يوم اللقاء بعد غياب في قبرص عام 1984.

كانت لحظات لم تطل فكان قراري أن أرفض عرض الفرصة الأخيرة لأقول لها يا أمي سلاما... رفضت عرضاً ما كان يثير ضجة لو وافقت، كان ردي لهم أن أمي من زرع بي قيم الكرامة والكبرياء، ستغضب مني لو وافقت، وأنا من لم يغضبها يوماً رغم أنها كثيراً ما زعلت من بعض "عنادي"...

رفضت وإبام وكان الخبر... ماتت أمك... ماتت صافية، واليوم بعد 25 عاما أعتترف أنها اللحظات الأقسى لي في حياتي، رفضت ان اعترف بما كان فقدانها أثرا، هربت من "ضعفي الإنساني" الى "غطاء قوة زائف"، رفضت تقبل عزاء كما هي العادة، وهو ما اغضب يومها الشهيد الخالد ياسر عرفات، رفضت أن يشاركني أحد رحيلها... لأيام اخترت ان اذهب الى البحر في تونس عله يربطني بروحها أكثر... رحلت صافية يا حسن!

وأعترف، انه حتى يومنا هذا أنني ابكي بصمت عندما أذكرها او يتم ذكرها... ابكي لأنني أخفيت البكاء امام كل الناس يوم أن غادرتني ورحلت...

يا صافية، بعد 25 عاما أقول لك كم أنا فخور بأني تربيته... كم أعتز أن إمراة أمية صنعت مني إنسانا لم يحن راسه يوما لغير حق... كم انا فخور بأني ابنك... لروحك يا امي سلاما وحبا ومحبا... أطلب منك سماحا بان قلبي خائني في ان اكتب لك!

في يوم الأم، سلاما لروح أم ناصر اسعاف الجراح جدة بناتي هدى وديمة وام لينه، سلاما لروح أم مروان التل والدة زوجتي سهير... سلاما لأمي الثانية زوجة ابي ووالدة إخوتي... في عيد الأم سلاما لشقيقاتي وأخواتي...

سلاما للأم الفلسطينية حيث لها فخر لا بعده... سلاما للأم في عالمنا لأنها تستحق.